هوية الدور السياسي للنساء
في المجتمعات الإسلامية المعاصرة
الواقع والتحديات

للأستاذة الدكتورة/ بسيمة الحقاوي*

لا شك أن موضوع ممارسة المرأة للسياسة والتمكين لها في هذا المجال من المواضيع التي أثير حولها عدة تساؤلات بخصوص المساواة بين المرأة والرجل وتكافؤ الفرص، وثنائية المرجعية بين ما يصطلح عليه بالكوني وما يخص الدول الإسلامية من تشريع إسلامي، وإسقاط الفضاء العام على الفضاء الخاص مما يجعلنا نجيب عن هذه التساؤلات بتساؤلات أخرى:

- هل عدم تكافؤ الفرص بين المرأة والرجل في العمل السياسي سبب أم نتيجة؟
- وإذا كانت المرجعية الإسلامية تقبل القوانين والمواثيق الدولية ككسب إنساني فيما لا يتعارض مع جوهرها فهل ما يسمى بالمرجعية الكونية تقبل المرجعية الإسلامية أم تقصيها عمليا وتنكرها جملة وتفصيلا؟
- وما هي معايير الاستناد لضرورة تطابق المجال العام الذي تمارس فيه السياسة والمهن والحرف وتقوم فيه العلاقة بين النساء والرجال على الزمالة والتراتبية الإدارية، مع المجال الخاص الذي يعني الأسرة كفضاء حميمي والعلاقة الزوجية كعلاقة تكاملية.

فالإسلام الذي يحاول البعض إحاطته بعدد من الشبهات لا يتعرض للمرأة في ممارسة السياسة، إذ أن الأمر تدبيري وليس عقدياً، والضوابط الأخلاقية للسلوك اليومي للفرد تحكمه في كل ممارساته العلائقية والمهنية والوظيفية أين كانت. فإشكالية وصول النساء إلى مراكز القرار وتمكينهن سياسيا تطرح على المستوى التاريخي والواقعي وعلى مستوى الذهنيات والنفسيات. والإسلام لا يقيد خدمة الصالح العام والانخراط في العمل الجماعي

---

* أستاذة علوم التربية والتربية الإسلامية ـــ نائبة برلمانية بمجلس نواب المغرب.

الباني بل يحث عليه ويأمر به ولا يفصل في ذلك بين النساء والرجال يقول تعالى: "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"[1].

وبعيدا عن منازعة الإسلام في إيجابيته العالية بخصوص هذا الشأن واستبعادا للتورط في تبرئة الإسلام من شبهة مزعومة. مداخلتي ستنصب على الدور السياسي للمرأة كتحد للواقع وكخصوصية قد تأتي بمكاسب جديدة. فالله سبحانه وتعالى يفسح آفاق العمل العام على وجه الخصوص الذي يستدعي الإبداع والخلق ولعل هذا ما جعل العلمانيين يتحدثون بخصوص النص القرآني عن " المعيار المتخيل"[2] فوقعوا بذلك في تناقض سافر بين اتهام الإسلام بالجمود وقيامه على المفترض أو المتخيل (أي ما يتطلبه العصر من مواكبة ...) .

حول هذا الموضوع تطرح عدة إشكاليات تتعلق بالمسألة النسائية عموما، وبموقع المرأة في الساحة السياسية وبالمجال السياسي بتجاذباته ومخاضاته، إلا أن طرح موضوع"الدور السياسي" في علاقته بالأداء النسائي من حيث أهميته وحجمه وأثره في الواقع يستدعي التركيز على مفهوم "الدور" بكل ما يتطلب من وقوف على مستوياته وتداخلاته وميكانيزماته في مجال السياسة تحديدا.

إن رصد أسلوب وإيقاع النساء في القيام بالدور السياسي يجب أن يتأسس على معايير تتحدد من خلالها توجهات الدور وسلوك الدور وتوقعات الدور، التي تحددها نظرية "الدور"[3] في مجال علم النفس الاجتماعي.

---

(١) القرآن الكريم. سورة التوبة. الآية: ١٠٥.

(٢) علي بن مخلوف. القانون الخاص والقانون العام أو الثنائية المستحيلة. في: القانون والمشاركة السياسية. منشورات الفنك. سلسلة حوارات فلسفية ٢٠٠٢ ص: ٢٦ – ٢٧.

(٣) انظر:

Deutsch M . Krauss .R. M , Les théories en Psychologie sociale , Paris, Mouton. ١٩٧٢.

.Rocheblave- Spenle A-M, La notion de rôle en psychologie sociale . Paris. P U . F ١٩٦٢.

ـــ فتوقعات الدور تتعلق بما يحكم الأفعال السياسية من تأثير وصنع قرار ويدخل فيها انتظارات المواطنين.

ـــ وتتعلق توجهات الدور السياسي بالأسلوب الذي يمارس به الفاعل من حيث التصور والأفكار الموجهة.

ـــ وسلوك الدور يقيم من خلال الممارسة الفعلية للفعل السياسي. وهكذا فإن ما يتوقع من الدور السياسي للنساء يتباين بين انتظارات الشعب وانتظارات النخبة المتابعة لمسار حركة النساء وتطور مواقعهن في المجتمع حيث إن المواطنين أصبحوا يراهنون على المرأة بعد أن فقدوا إلى حد كبير الثقة في الرجل، ويأملون في استثمار إمكانيات المرأة الأخلاقية التي يفترض البعض أنها لاتزال قوية لدى النساء، كالنزاهة والإخلاص والشفافية، وتقدم في ذلك شهادات وأرقام لا ترقى إلى مستوى العلمية الضرورية لاعتمادها، ومع ذلك فهو معطى متداول شعبيا على الأقل. أما المتتبعون من المثقفين المهتمين فهم يترقبون الإضافات التي يمكن للنساء المساهمة بها في الحقل السياسي وعلى رأسها المكاسب الجديدة التي يمكن انتزاعها سياسيا للمرأة.

أما أسلوب النساء في قيامهن بالدور السياسي فيطرح على أكثر من مستوى :

ـــ فالنساء لسن فئة مقولبة تصدر عنها أفعال منمطة تخضع لما يمكن أن يسمى " بالأسلوب النسائي" فهن شخصيات مستقلة لها مسارات تنشئوية مختلفة وتركيبات تربوية وتأهيلية متنوعة.

ـــ كما أن الممارسة السياسية تتم في الغالب من خلال مؤسسات سياسية تطبع المنتمين إليها إيديولوجيا ومنهجيا. فنجد النساء كالرجال أوفياء لمراجعهن السياسية، منضبطات لاختيارات مؤسستهن ومذهبيتها.

ويمكننا أن نقف عند سلوك الدور السياسي عند النساء، لأن تقييمه يستند إلى أفعال ووقائع، نرصده من خلال دور المرأة في الأحزاب والعمل الجماعي والعمل البرلماني.

المرأة في الأحزاب

داخل الأحزاب لم ترق النساء في السلم الحزبي إلى درجة عضو في القيادة العليا (كالأمانة العامة أو المكتب السياسي) إلا في السنوات الأخيرة بنسبة واحدة أو اثنتين في هذا الجهاز، بصفات محددة: مستشارة أو مكلفة بملف المرأة أو بالقطاع النسائي للحزب.

وكانت هذه المبادرة قفزة نوعية بالنسبة للمرأة بالرغم من سلبية خلفيتها حيث إن حضورها كان مطلوبا لذاته كرمز للإيحاء بالقطيعة مع إقصاء المرأة. وتبقى هذه المرحلة ذات أهمية بالغة في الدفع نحو إدماج المرأة في الحقل السياسي، خصوصا بعد قبول الأحزاب بمبدأ الكوطا (في بعض الدول كالمغرب) وتبنيه بنسب متفاوتة في أجهزة الأحزاب وفي عملياتهم الانتخابية، إلا أن الأحزاب نفسها لا تعرف الاستقرار السياسي الممكن من العمل السياسي الناضج بحيث إن تشرذمها، وفتورها النابع من اهتزاز حس الانتماء والتصفيات من أجل تحقيق المصالح الذاتية، جعلت المناخ السائد داخل الأحزاب غير مساعد على تقوية موقع المرأة بالهيئات القيادية. كما أن ميول أغلب القيادات النسائية نحو التزام الحياد، يخرجهن من دائرة الصراع الداخلي ولكن في نفس الوقت يخرجهن من دائرة التفاعل السياسي وبالتالي لا يكون لهن وضع سياسي معلوم من حيث التموقف من مجموعة من الممارسات تختلط فيها المقاربات السياسية مع الحسابات الشخصية.

أما فيما يتعلق بتدبير الشأن المحلي فإن عدم ترشح النساء وعدم ترشيحهن بالأعداد المناسبة للمرحلة، يعتبر مؤشرا على عدم ارتياح المرأة في دواليب التسيير الجماعي وعلى عدم الارتياح لها. وبالتالي فإن المجال " الجماعي" لم يستوعب المرأة بحيث يجعلها تحقق مكانة تغير من خلالها الصورة السائدة عنها.

في هذا السياق لا يبقى أمام النساء إلا أن يرفعن من مستوى الأداء ويعملن على تغيير تلك الصورة. وإن كان تجميع حصيلة عملهن المتفرقة تتطلب وقتا لتركيب الصورة الجديدة. أما داخل مؤسسة البرلمان فالفضاء يسمح بمعاينة العمل من خلال الدور النيابي والاستشاري الذي تقوم به النساء البرلمانيات والذي قد لا يختلف عن دور النواب الرجال. إلا أن التواجد التزامني لكل النائبات داخل نفس الفضاء للقيام بنفس الدور يعطي قوة لهذا " التواجد" لسهولة التواصل وسرعته، وإمكانية التنسيق عند الانفعال بالأحداث، وتبقى تجربة النساء بالحجم الذي هن عليه مؤشر على التنزيل المحلي للتوصيات الدولية والوطنية لتمكين المرأة من حقوقها السياسية، والتي ليست لها تجليات كبيرة في الواقع السياسي الواسع بشكل قار ومنتظم، مما يستدعي جهدا أكبر في تفعيل الآليات المساعدة على الخوض في العمل السياسي على جميع الأصعدة وتعميمها، ونشر

الوعي نخبويا وجماهيرياً بالإشكالات البنيوية المعوقة للعمل السياسي المشترك بين النساء والرجال وللدور السياسي الذي يمكن أن تقوم به المرأة.

"التبادلية" لا "التطابقية"

إن مسألة تقسيم الأدوار وتقسيم الفضاءات بين المرأة والرجل عموما ، في اتجاه التطابقية تدخلنا في منطق "الجذرية" وتسمح لنا مرونة "التبادلية" في الأدوار بارتياد الفضاءات الخاصة والفضاءات المشتركة بحكم الأدوار الموحدة كالأدوار السياسية. وإذا كان تثبيت المرأة في أدوار معينة حسم الصراع بين أدوار المرأة والرجل فإنها اليوم ومن خلال الدور السياسي أو المهني الذي تقوم به تدخل على المستوى الذاتي في صراع بين الأدوار التي تقوم بها، وحدها كالدور الفيزيولوجي (الرضاعة) والتربوي للأبناء المرتبط بالأمومة (وإلا فالرجل أيضا كأب معني بتربية الأبناء)، فتتنازعها الاتجاهات نحو تحديد الأولويات وترتيبها لتتقلص بذلك أريحيتها في القيام بالدور السياسي بعيدا عن الضغوط والإكراهات. بينما لم يتغير وضع الرجل في قيامه بالدور السياسي من حيث الاهتمام والتركيز على الدور دون مشوشات نفسية واجتماعية مرتبطة بأدواره الأخرى.

إن النساء عبر تاريخ الإنسانية قمن بدور سياسي على هامش الفعل السياسي حيث إن نساء الملوك والحكام كن مستشارات في اتخاذ القرار السياسي، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أخذ برأي أم سلمة[٤] في وضعية سياسية كادت تعصف باجتماع المسلمين حول الرسول صلى الله عليه وسلم على إثر صلح الحديبية إذ كانت له تجلياته على أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم و على مدى امتثالهم لأوامره.

---

(٤) عبد الحليم محمد أبو شقة . تحرير المرأة في عصر الرسالة . الكويت . دار القلم .١٩٩٥ الطبعة الرابعة ص ٢٣١ : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية ... فلما فرغ من قضية الكتاب (أي كتاب الصلح مع قريش)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا ..." رواه البخاري .

وإذا كانت هذه المواقف أحداثاً معزولة وفردية ليس لها أى ثقل في بلورة الدور السياسي الذي تقوم به المرأة فذلك لأن هذا الدور كان يمارس خارج المؤسسات. ولقد استحدثت في أيامنا هذه مؤسسات وشبكات نسائية للقيام بهذا الدور بشكل مؤسساتي يعطي للاستشارة السياسية موقعها في القيام بالدور السياسي للنساء، ونذكر هنا تجربة شبكة النساء الفيلنديات التي تلتقي فيها جميع الفعاليات النسائية بغض النظر عن انتمائهن أو عدم انتمائهن للأحزاب، بل إن التلوينات السياسية نفسها ليس لها أي اعتبار في تشكيل هذا الجهاز الذي أصبح مرجعا استشاريا في كل مناحي التدبير المحلي وتدبير الشأن العام.

ولقد كانت أيضا صورة المرأة القيادية التي تقوم بدور سياسي ترتبط في أغلب الأحيان بتبعيتها السياسية لأحد أقاربها الزعماء، حيث تتبنى مشاريعه وقضاياه السياسية ولا تكون هي الأصل في إبداعها أو إنتاجها أو إطلاق شرارتها الأولى. نذكر من بينهن صفية زغلول زوجة سعد زغلول، أنديرا غاندي ابنة منهاتن غاندي، بنازير بوتو ابنة بوتو وغيرهن كثير ممن لعبن دورا استكماليا لعمل سياسي قائم. وإن التبعية السياسية التي يفرضها الانتماء السياسي أو التبعية العائلية في استكمال المشاريع السياسية يسقط النساء في التراتبية التي لا تعطيهن فرصة القيادة انطلاقا من هوية " الدور السياسي" الذي يمكن أن تقوم به المرأة. فبعد هذا المسار الطويل من التقلب في الأدوار داخل أو حول السياسة فإن التراكم المعرفي والميداني الحاصل اليوم بين يدي النساء كاف لنقلهن من هذا المستوى من التواجد السياسي إلى مستوى الفعل السياسي الحقيقي بالاقتحام والمبادرة والتخلي عن طلب المشروعية من الآخر لإضفاء المصداقية على أعمالهن، لأن الاستقلالية تمنح الشعور بالثقة في النفس كمؤهل للعمل الإبداعي في القيام بالدور السياسي.

وإذا كان الرجل يتهم باحتكار كل السلط السياسية والاقتصادية والاجتماعية... وأنه أنتج الفكر الذي يكرس هذا الوضع بالشروط التي تضمن له الاستمرار وإعادة احتكار السلطة الممكنة من النفوذ، فإن الديمقراطية جاءت بمفهوم التداول على السلطة، مما يساعد على انتشار ثقافة جديدة تؤسس للتعايش الجنسي في الممارسة السياسية. مما يحد في آن واحد من الاحتكار ومن الاتهام ! وهناك ثمة حلقة ضرورية لتحقيق هذه الغاية وهي الإنتاج الفكري الخاضع للمنطق الديمقراطي في التعاطي مع الشأن السياسي.

الإنتاج الفكري والضغط الإعلامي

لعل الإنتاج الفكري يغذي العمل الإعلامي الذي يعتبر قنطرة وصل بين الخواص والعوام، كما أنه وسيلة ضغط تدعم الدور السياسي، وقد حصل هذا في بداية مشوار النساء الحركيات، ففي مصر:« عندما فرغت لجنة الثلاثين من وضع مشروع الدستور ولم تنص فيه على أي حق سياسي للمرأة بدأت المجلات النسائية (مجلة الأمل، مجلة أمهات المستقبل، مجلة الفتاة...) تشن حملة على اللجنة وتطالب بحق المرأة في حضور جلسات البرلمان، وبالفعل تم تخصيص مقصورة للنساء في عام ١٩٢٥ وأعقبتها الموافقة بتخصيص مقصورتين، ثم أعلن أن البرلمان يناقش بالفعل حق المرأة في التصويت أثناء انعقاد جلساته»[٥] فإنتاج الأفكار يحتاج إلى الترويج الإعلامي ولتعبئة واسعة لتهيئ الساحة لمرحلة التحويل السلوكي.

وفي هذا المضمار نذكر الدور التعبوي والحركي الذي قامت به فعاليات مغربية من المجتمع المدني والساحة السياسية لإقناع الحكومة والأحزاب والرأى العام بآلية الكوطا للتمكين السياسي للمرأة.

وبعد التجربة الأولى لولاية واحدة(٥سنوات) ارتفعت الأصوات بالمطالبة"بالمناصفة" ! وهي كما تسميه **Christine boutin** في كتابها "دموع الجمهورية"[٦] الفكرة الجيدة، الفاسدة. قد تكون منطقية لكنها غير عقلانية. وقد تكون مثالية وبالتالي لا تستجيب للواقعية. فالشروط الموضوعية والذاتية التي تساعد المرأة على الوصول إلى مراكز القرار غير متوفرة تماما، ومشروعية المطالبة بنهج طرق استثنائية للدفع بمسار التمكين السياسي للمرأة لن تطوع الواقع ليستوعب الآمال المنشودة، إذ تحتاج إلى الوقت الكافي للتفكير المسئول في العمل لا ارتجاله، ولبناء" التغيير" لا فرضه. فالماء الراكد غير جائز للوضوء والفكر الجامد غير قادر على مسايرة العصر انطلاقا من

---

(٥) د . آمال كامل بيومي السبكي . الحركة النسائية في مصر ما بين الثورتين ١٩١٩ ١٩٥٢. مصر مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦. ص:٥٣.

(٦) Christine Boutin , Les larmes de la république .Plon . ١٩٩٩. PP ٤٤-٤٨.

الـــسعة التي يوفرها الإسلام والاجتهاد للتكيف، فالبناء القائم على قواعد هشة مهدد في صموده واستمراره والطارئ آيل للزوال .

في نهاية هذه المداخلة لابد أن نطرح التساؤل التالي: هل هناك خصوصية لدور المرأة في السياسة أم هناك أسلوب لقيام المرأة بالدور السياسي؟!

فللنساء أن يخترن عن وعي ويقدرن بمسئولية إذا كانت هناك خصوصية تسترعي دورا سياسيا خاصا يأتي بالإضافات ويستهدف المكاسب وتتم على إثر ذلك المحاسبة، أم أن الدور السياسي المحدد والمعلوم لكل ممارس للفعل السياسي لا يحتمل إلا لمسة بسيطة اسمها أسلوب المرأة في القيام بالدور السياسي.

obeikandl.com